5

ميادة الحناوي: غيرة أم تجسس؟!

(وهذه واحدة من القضايا التي شغلت الرأي العام، كانت واحدة من همسات الوسطين الفني والصحفي لفترة طويلة، حتى خرجت من طي الكتمان المؤقت وأصبحت حديث الناس، بعد أن تجرأت أخيرًا الصحف وناقشتها على الملأ وعبر صفحاتها.. إنها قضية المطربة ميادة الحناوي مع الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهي من ناحية أخرى لا تخلو من حديث عن الفن و.. المخابرات والسلطة!)

ميادة الحناوي من مواليد حلب عام 1958، كانت بدايتها من خلال المسرح المدرسي، وبدأت قصة تعارفها بالموسيقار محمد عبد الوهاب عندما التقت به في فندق "بودان"، فاستمع منها مقتطفات، فنصحها بالسفر إلى القاهرة وكان ذلك عام 1977، وصحيح أن بدايتها الفنية الحقيقية كانت مع آخرين وأولهم الموسيقار محمد الموجي، الذي استمع إليها في دمشق بعد قرار ترحيلها المفاجئ من القاهرة، وقال الموجي عن صوتها إنه صوت سليم وطروب، ثم ذهب بليغ حمدي أيضًا إلى دمشق وقدم لها لحنًا لأغنية "إيه يا هوى"، وكذلك، ورغم مرض الموسيقار الكبير الراحل رياض السنباطي، فقد وضع لها لحنًا نفّذته في دمشق، وهكذا ورغم أن الخطوة الأولى كانت مع محمد عبد الوهاب، إلا أن الانطلاقة كانت من دمشق. ولكن ما يهمنا هنا هو التوقف أمام حقيقة العلاقة مع محمد عبد الوهاب الذي من الواضح أنه كان أحد أسباب قرار ترحيلها من مصر، كما أن تلك العلاقة تلقي الضوء على أشياء كثيرة في حياة ميادة الحناوي الفنية والشخصية.

عندما وجه الموسيقار عبد الوهاب الدعوة إلى ميادة الحناوي – وهي لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها – لزيارة القاهرة، وجدت ميادة التي كانت لها شقيقة أكبر تغني تدعى فاتن في هذه الدعوة الفرصة لتحقيق طموحاتها في عالم الفن، فحزمت حقائبها على الفور مصطحبة والدتها وشقيقها "عثمان" ورحلت إلى القاهرة..

وفي مطار القاهرة كان في استقبال ميادة وأسرتها مجدي العمروسي محامي شركة صوت الفن وأحد شركائها، وبعد فترة توقفت السيارة التي تقلها أمام عمارة أنيقة بحي الزمالك الراقي، وكانت في انتظارهما بالشقة خادمة وسائق خاص بناء على طلب من موسيقار الأجيال.

وأمام الباب – باب الشقة – سلّم مجدي العمروسي مفتاح الشقة إلى ميادة ومعه قصاصة ورق عليها رقم تليفونه وتليفون الأستاذ (عبد الوهاب) قائلاً لها: أنا تحت أمركم في أي وقت تحتاجون إلى معونة..

وفي اللحظة نفسها رنّ جرس الهاتف، لتستقبل ميادة أول مكالمة من عبد الوهاب، فقالت: إنتَ تَعَبْت نفْسَك معايا قوي يا أستاذ!

- العفو يا هانم.. ده أقل واجب أقدر أقدمه لنجمتنا الجديدة.

ميادة: ربنا يخليك يا أستاذ..

عبد الوهاب: ميرثي يا فندم.. وإذا عايزين أي شيء أبعث لكم السواق بتاعي.

ميادة: لكن ده كثير يا أستاذ..

الأستاذ: أبدًا يا فندم.. إنتم معزومين على العشاء الليلة.. وعلى مائدة الأستاذ العامرة اجتمعت الأسرتان؛ أسرة عبد الوهاب، وأسرة ميادة الحناوي، وبعد العشاء الفاخر أعطاها عبد الوهاب الدرس، قائلاً: دلوقتي لازم تروّحي تنامي بدري علشان تصحي بدري أيضًا، وكمان لازم تعملي رياضة في الصباح.. الشيء الثاني أنا مش عايزك تروحي أي مكان إلا إذا ادتيني خبر.. اتفقنا؟

وعند الجملة الأخيرة نتوقف، ونتساءل: هل هو اهتمام مبالَغ فيه مِن قِبَل الأستاذ تجاه نجمته الساعدة؟ أم هي غيرة فنية خوفًا من تعاونها مع أحد غيره؟

لكن المؤكد في كل الأحوال أن هناك رعاية خاصة من جانب الأستاذ تجاه ميادة باعتبارها (مشروعه) الجديد، وعبد الوهاب عُرِف عنه الاستثمار الجيد لعلاقاته الفنية؛ من أجل أن تضيف إليه ولا تأخذ من رصيده إلا إذا كان العائد أكبر.

ولذلك أصرّ عبد الوهاب على توقيع عقد احتكار لمدة خمس سنوات مع اكتشافه الجديد، تكون خلالها "صوت الفن" هي المنتجة الوحيدة لأغانيها.

ورغم أن عبد الوهاب قد طلب من ميادة وأسرتها عدم الاتصال بالصحفيين أو الرد على أسئلتهم، إلا أن الأخبار بدأت تتسرب إلى الصحف الفنية المعروف عنها اهتمامها بأخبار الفن

والمجتمع، وكان واضحًا من الخبر الأول الذي نشر عن الصوت الجديد "ميادة" أنه يحمل نوعًا من "الدعاية" لاكتشاف الأستاذ الجديد، وجاء في الخبر الذي نُشر بمباركة الأستاذ، تحت عنوان "عبد الوهاب يكتشف مطربة سورية": "اكتشف الموسيقار الكبير عبد الوهاب صوتًا نسائيًّا غنائيًّا نال إعجابه الشديد، وقال بعد أن استمع إلى صاحبته وهي تغني في حفلة خاصة إنها مطربة على قدر كبير من الموهبة، وإنها لو احترفت الغناء لكانت من أبرز المطربات العربيات..

وصاحبة الصوت الجميل الشجيّ اسمها ميادة الحناوي، وهي حلبية الأصل، وشقيقة المطربة السورية المعروفة فاتن الحناوي التي فازت بإحدى جوائز مهرجان الأغنية العربية الذي أقيم في دمشق خلال الصيف الماضي (عام 1976)..

وأضاف الخبر أن العقبة الوحيدة التي تقف في وجه ظهور ميادة الحناوي هي أنها لا تحب أن تكون مغنية محترفة، وتفضل أن تظل هاوية غناء فقط، وإن كانت السيدة أمها تؤكد أن ابنتها كانت تقول لها منذ طفولتها إنها على استعداد لأن تحترف الغناء، إذا لحّن لها أغانيها أو بعضها الموسيقار محمد عبد الوهاب..

ووصفها الخبر على النحو التالي "وبقي أن نذكر أن ميادة الحناوي تجمع بين جمال الصوت والأداء، وجمال الشكل أيضًا، وهو ما لم يتوفر إلا للقليلات من المطربات العربيات.. (الموعد 1977/10/19).

ومن الواضح أن الطريق كان يمهد لبزوغ نجمة جديدة في عالم الغناء، فماذا حدث بعدها؟

حتى ندرك ماذا حدث بعد ذلك علينا أن نبرز قصة تعارف ميادة الحناوي بمحمد عبد الوهاب، ففي البداية كانت شقيقتها فاتن الحناوي مطربة معروفة في حلب، ثم في سوريا كلها بعد انتقالها إلى دمشق وغنائها في الإذاعة والتليفزيون السوريين، وكان من بين أصدقاء الأسرة السيد "عدنان الدباغ" الذي كان وقتها وزيرًا لداخلية سوريا، وهو عاشق للفن، فاستمع إلى ميادة بطبيعة علاقته بالأسرة، فتحمس لها، وكان في الوقت ذاته صديق حميم لمحمد عبد الوهاب، وكان يعلم بالطبع بمكان اصطياف عبد الوهاب في منطقة "بحمدون"،

ولكن الحرب الأهلية نشبت في ذلك الوقت، وارتفع صوت المدافع، وعبد الوهاب بطبعه القلق، الوسواس، لا يطيق صوت المدافع ولا يحب سيرة الحرب، فانتهز السيد عدنان الدباغ الفرصة ودعاه لقضاء بقية أيام المصيف في "بلودان" المصيف الهادئ الآمن، وعندما لبى عبد الوهاب الدعوة، وأخبر الدباغ عائلة ميادة، هتفت ميادة على الفور: نفسي أقابله مرة! وافقت الأسرة، وباركت رغبة ابنتها في لقاء الأستاذ، وفي مكان إقامة الأستاذ، استمع إليها الأخير وهي تغني بعض مقاطع لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، وبعض أغنيات سورية من فولكلور طروب، وبعض ألوان من الغناء اللبناني، كل هذا والموسيقار يبدي إعجابًا حقيقيًّا يزيد من حرارته ميل الأستاذ إلى المبالغة في المجاملة.

سأله الدباغ في نهاية الغناء: إيه رأي الأستاذ؟

- صوت جميل.. محتاج شوية تدريب وزخرفة..

* هل تمنحها شرف التدريب على يديك؟

- لكن.. دى مسألة تأخذ وقت.. مش في يوم وليلة.

ومن هنا جاءت فكرة سفر ميادة إلى القاهرة واستضافة عبد الوهاب لها.

ورغم التكتم الشديد الذي كان يتعامل به عبد الوهاب مع الصحافة؛ حتى تكتمل مفاجأته، إلا أن عبد الوهاب كان يعدّ الصالونات الثقافية والفكرية لصوته الجديد؛ بهدف الارتقاء بها ثقافيًّا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يقدمها إلى صفوة المجتمع بهدف تحقيق الإجماع حول صوتها..

وفي صالون عبد الوهاب التقت ميادة بصفوة من أهل السياسة والفكر: مصطفى خليل، سيد مرعى، مصطفى أمين، محمد عبد القادر حاتم، إحسان عبد القدوس وآخرون، وبدأت الأخبار تتسرب عن اللحن الذي يعدّه عبد الوهاب لميادة وهو "في يوم وليلة" كلمات الشاعر الغنائي الكبير حسين السيد، بل وأن ميادة تسجل اللحن بالفعل بصوتها بمصاحبة عود الأستاذ، وفجأة..

طارت ميادة إلى دمشق، وكان الخبر المعلن أنها ذهبت لتتابع حالة والدها المريض، ولكن..

بدون مقدمات أيضًا بدأ الأستاذ يصرّح بأن ميادة "صوت غير ناضج"، وأنها ليست في مستوى لحنه!

وكان هذا يتنافى مع تصريحاته السابقة!

واشتعلت ميادة غضبًا، حتى ولو لم يكن التصريح مفاجئًا لها!

وبدأ خبر مثير للتقزز ينتشر في أوساط بعينها، يتحرك ببطء ولكنه كان ينتشر رويدًا، رويدًا، انتشار النار في الهشيم.. الخبر يقول: إن ميادة قد تم ترحيلها بسبب خطرها على الأمن القومي المصري، ثم راح يظهر في جرأة أكبر ليعلن أنها "جاسوسة ضد مصر، وأن عملها هو جمع المعلومات السرية من أفواه مصادر معينة سياسية وفنية..."!

هكذا بمنتهى البساطة، البنت الصغيرة التي لم تكمل عامها السابع عشر.. عميلة مخابرات!

وتتكشف الأمور أكثر أن القرار صادر من وزير الداخلية المصري اللواء نبوي إسماعيل، وأنه جرى استجواب لميادة في مطار القاهرة قبل ترحيلها!

ولم يعرف الناس شيئًا عن حقيقة علاقة ميادة الحناوي بالتخابر، حتى تم تجنيدها، ولا ما هي طبيعة المعلومات التي جاءت من أجلها في فترة شهدت توترًا شديدًا في العلاقات بين مصر وسوريا، ولا ما هي الأخبار التي تمكنت بالفعل من الحصول عليها أو مصادرها في القاهرة التي تعاملت معها... وإلى هنا لم تكن أية كلمة تقال عن دور عبد الوهاب فيما حدث!

إلى أن تطورت الشائعات وربطت بين قرار الترحيل وبين غيرة زوجية شعرت بها زوجة عبد الوهاب تجاه النجمة الجديدة، فكانت سببًا في منعها من الغناء "في يوم وليلة".. أين الحقيقة؟ لا أحد يعرف حتى الآن..

وتمر السنوات، ولأن الحقيقة لا تموت، وعندما تغيب الحقائق فإن الشائعات تولد، فبعد نحو 22 عامًا من قرار الترحيل والشائعات التي تناثرت من حوله، ورغم أنه سبق ذلك بتسع سنوات أن دعيت ميادة الحناوي – من وزير الإعلام المصري – لزيارة مصر والغناء في أكبر مسارحها بمركز القاهرة للمؤتمرات، يعترف اللواء النبوي إسماعيل في أحد البرامج على شاشة محطة عربية فضائية بأنه كان وراء منع دخول ميادة إلى مصر.. ومزيد من التوضيح

للقصة الشائكة التي تصادم فيها الفن مع السياسة (السلطة) قال اللواء النبوى إسماعيل للصحفي اللامع وائل الأبراشي (روز اليوسف 99/8/27) إن القصة فيها بُعْد أمني وبُعْد إنساني وبُعْد فني، والذي حدث أن الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب طلب أن يلتقي به لأمر حساس ومهم، وأنه بمجرد أن دخل مكتبه اكتشف أن عينيه شديدة الاحمرار وقال وهو يوشك على البكاء (على حدّ وصْف وزير الداخلية الأسبق) إن السيدة نهلة القدسي سوف تتركه وتنفصل عنه لو عادت ميادة الحناوي إلى مصر مرة أخرى، وأضاف الأستاذ: أنا حيتخرب بيتي لو ميادة الحناوي دخلت مصر، ولو نهلة سابتني لن أتحمل وسوف أموت.

ويمضي اللواء النبوي إسماعيل في روايته قائلاً: إنه أخذ يبحث عن "قرار موضوعي" يستند إلى اعتبارات ومبنيّ على أساس، فكلّف ببحث وضع ميادة الحناوي في الملفات الأمنية، فقالت التقارير إنها صديقة لشخصية سياسية سورية كبيرة، وإنها تعمل معه تحت ستار الفن للحصول على المعلومات المتعلقة ببعض الدول العربية وعلى رأسها مصر!

وهنا يقفز السؤال: هل لو لم يبلغ عبد الوهاب بأن "بيته ها يتخرب بسبب ميادة".. كانت ستترك تمارس نشاطها "العدائى" داخل مصر؟

مجرد سؤال..

أكثر من ذلك قال الوزير أنه تم تسجيل مكالمات لميادة مع شخص مصري تحصل منه على أخبار ومعلومات، ووصفت هذه المكالمات بأنها مكالمات "مش طبيعية" تتعلق بأمن وأحوال مصر.. وأضاف: إن هذه أمور نفهمها نحن كرجال أمن".

بعد ذلك يقول الوزير: إنه شعر بالراحة، وأن ربنا "لم يكسفني"، وطلب عمل إجراءات منعها من دخول مصر.

ولكن الغريب أن وائل الأبراشي عندما سأل وزير الداخلية التالي للواء النبوي عن أسباب استمرار قرار منع ميادة من دخول مصر في عهده أيضًا قال اللواء أبو باشا: "طلب الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب مقابلتي عام 1982، وطلب مني منع ميادة الحناوي من دخول مصر – استمرار المنع – وقال لي: فيه جوانب فنية وشخصية وأمنية، وأن ميادة على اتصال ببعض الشخصيات التي لم تكن مواقفها واضحة، وأضاف أبو باشا: لمّا يطلب عبد

الوهاب حاجة زى كده من الطبيعي أن أقف بجواره، وفيه مواءمة أمنية وقومية في هذه القضية، لذلك أنا وافقت على استمرار منع دخولها".

ولم يعجب هذا الكلام وائل الأبراشي، وكتب مقالاً هاجم فيه المسئولين الذين منعوا المطربة السورية ميادة الحناوي لمجرد أن الموسيقار محمد عبد الوهاب طلب منهم ذلك.

والحقيقة أن المرء ليتعجب من هذا المنطق؛ فهو يكثف الحالة التي نتناولها هنا وهي قضية الفنان والسلطة، فيبدو أن الفنان محتاج دومًا إلى السلطة لتدعمه وتقويه، في الفن وفي أمور الحياة، ولكن عندما يصطدم فنانان كلاهما على علاقة بالسلطة وبالنفوذ، فإن قانون الطبيعة سينتصر، وستكون الغلبة لمن استند إلى القوة الأكبر..

إننا لا نظن أن دفاع الفنانة ميادة الحناوي عن نفسها يفيد كثيرًا في هذا المجال، فهي قد قالت كلامًا يبدو مقنعًا، وهو أنها إذا كانت متهمة بشيء فلماذا عادت وبهذه الدعوة الرفيعة المستوى؟! ولكن أخطر ما كشفت عنه ميادة الحناوي – في رأينا – هو أن المسئول السوري الكبير الذي اتهمت بالعمل لحسابه، كان زوجها – في السر – وأنها إذا كانت متهمة بالتخابر معه، فإن عبد الوهاب أيضًا كان على اتصال به بحكم صداقتهما.. ولكن لا يفوتنا أن نسأل: هل زواج ميادة من المسئول السوري الكبير – ونحن في سياق علاقة الفن بالسلطة – كانت من قبيل البحث عن دعم سلطوي، خاصة أنه من الواضح أن هذا المسئول هو الذي عرّفَها على الموسيقار محمد عبد الوهاب؟

أيضًا فإنه من الممكن أن تكون ميادة – أو جزء من قضيتها على الأقل – سببها الجو المكهرب في العلاقات بين دمشق والقاهرة في نهاية السبعينيات، وهو تصادم سلطتين على مستوى كان ضحيتهما فنانة، كنوع من الرسائل الساخنة المتبادلة.

وهذا نموذج آخر للفنان عندما يستند إلى السلطة فتقوي من شأنه.

وإذا كان البعض قد أشاع أن المطربة وردة كانت وراء خروج ميادة الحناوي من مصر؛ لتفوز وردة بأغنية "في يوم وليلة"، وهو اللحن الذي كان قد وضعه محمد عبد الوهاب خصيصًا لميادة ليكون نافذتها في التعارف مع الجمهور المصري والعربي، واستند أصحاب هذا الرأي إلى المقولة القضائية المعروفة التي تنادي بالبحث عن المستفيد، إلا أن السيدة وردة

الجزائرية نفت ذلك بشدة في المقابلة التليفزيونية التي أجرتها معها الفنانة صفاء أبو السعود، وكانت وردة مؤثرة عندما أقسمت عبر البرنامج بأنها حتى هذه اللحظة لا تعرف شيئًا عن الأسباب التي جعلت عبد الوهاب يمنع هذه الأغنية عن ميادة، ثم يمنحها لها – أي وردة – وأنها لم يخطر ببالها أن تسأله عن هذه الأسباب. وأضافت وردة أنها تعلم بالطبع أن أغنية "في يوم وليلة" كانت معدة لتغنيها زميلتها ميادة (التي أشادت وردة بصوتها) ولكنها تساءلت:

هل أنا أستطيع أن أقنع عبد الوهاب بكل ما يمثله من ذكاء وقوة بأن يجعل ميادة تغادر القاهرة كلها ليمنحني الغنوة؟!

من طريقة كلام وردة نستطيع أن نستبعد هذه الرواية، ولكننا مازلنا في حاجة لأن نسمع أطرافًا أخرى في هذه الواقعة التي تضاربت فيها مصالح الفن مع قوة السلطة.

ولكن يبقى السؤال قائمًا: ما هي المصلحة المشتركة، وعن أي شيء كان الدفاع أو حتى الهجوم؟